

الأستاذ أحمد شفيح السيد

انتقل إلى رحمة الله منذ ثلاثين عاماً، ولا تزال ذكرياته الطيبة تملأ نفوس تلاميذه. لأنه كان نطمًا فريداً في سماحة النفس، ورحابة الصدر، وبذل العون المسعف، مع فكاهاة نادرة، ودعابة فريدة، هذا إلى أستاذيته الأدبية في فنّه، ومقدرته الشعرية ذات البديهة الحاضرة، أذكرُ أن صديقي الأستاذ أحمد الشرباصي قد خاض معي في سيرة أستاذنا الكبير، فقالَ فيما قال: إنَّ العهد بالتلميذ أن يمدح أستاذهُ بقصائده، ولكنَّ الشيخ أحمد شفيح كان يمدح تلاميذه إذا رأى من بوادر النجابة في مناقشاتهم ما يدلُّ على استعداد، ثم عرضَ على قصيدة جيّدة قالها الأستاذ في تلميذه أحمد الشرباصي، وفيها يقول عنه:

قبسٌ من الإصلاح لاحَ بصيصه سيزيدهُ كر المدى إشعالاً
وإذا رأيتَ الفجر ييسم ضوؤه فارقبُ لأنوار الضحى إقبالاً
فالبحرُ ماذا كان؟ كان جداولاً والبدرُ ماذا كان؟ كان هلالاً
والأسدُ في وثباتها وثباتها درجتُ على آجامها أشبالاً

وكنتُ منذ التحقتُ بالكلية أسمع عن مآثره ما يملأ الصدر إعجاباً، ولكنه يُدرّس للسنة الرابعة، وأنا بالسنة الأولى، ولا سبيل إلى التعرف به، لأنّي لا أحبُّ أن أفرضَ مودةً بدون تمهيد، ثم حقق الله رجائي، حين جاء الامتحان الشفوي آخر العام، فكان الأستاذ أحد أعضاء اللجنة، وبدا أنّه كان يسمع عني، ويقرأ مشجعا بعض ما أكتب، وانتظرتُ أن يسألني في المقررّ المدرّس نحواً وبلاغة، ونصوصاً

وقرآنا، كما ينصّ قانون الامتحان، ولكنه فاجأني بقوله: لا أريد منك غير إجابة واحدة عن سؤال واحد، فإذا وفقك الله فستستريح من الأسئلة المتعدّدة! مارأيك في كتاب (الأدب الجاهلي) الذي درسته بالكلية هذا العام؟ قلت: إن الكتاب من تأليف أستاذنا الضليع محمد هاشم عطية، ومكانته الأدبية لا تُنكر، ولكنني أرى أن تقيد بمواد المنهج الدراسي، قد أتخّم الكتاب من ناحية، كما لم يُسعف المؤلف بالتحليل الكاشف لبعض المسائل الدقيقة التي تتطلب الأناة!

ابتسم الشيخ ونظر إلى زملائه مفرسًا، ثم قال: أريدُ بعض الإفصاح عمّا أجملت، قلتُ: لقد تكلم الأستاذ الجليل عن قضايا البيئة الجاهلية، وعن الانتحال في الشعر الجاهلي، وعن أيام العرب، وعن الأمثال والحكم والوصايا والخطب، وعن المعلّقات، واختلاف الأنظار في ملابسها وتسميتها، ثم أفرد لكل شاعر ترجمةً تفيض بأخباره، مع ذكرِ نصوص في الأغراض المختلفة للشعر الجاهلي، وهذا كلّه لا يبلغُ مداه في التحقيق العلمي بكتاب واحد، والأستاذُ قادر كل المقدره على أن يخص كلّ موضوع بكتاب مستقل، ولكنه المنهج!

قال الشيخ: وما رأيك في أسلوب الكتاب التعبيري؟ قلت: إن بعض الأساتذة يأخذون عليه إبداعه الفني، في حلاوة السرد، وجمال التركيب، وتعدد الصور، ويرون ذلك عائقًا عن استشفاف الحقائق الأدبية، والأولى أن تُصاغ بأسلوب علمي خالص، ولستُ مع هؤلاء، لأن المؤلف لم يجمعُ به الخيال إلى ما يعدُ غريبًا عن موضوعه.

فكلّ ما ذكره يدور في فلك الأدب الجاهلي، أما جمالُ الأسلوب، وحسن انسجامه، فمما يُحسب للكتاب، ولا يمكن أن يكون موضعَ مؤاخذه، لأن تاريخ الأدب يزدادُ بهاءً وقربًا إلى النفس إذا كُتِب بلغة الأديب، والمؤلف أديب موهوب، فلا بُد أن يكون نتاجه صورةً من أدبه، وأشهد أن حقائق الكتاب من الوضوح والدقة بحيث لم تسبح في محيط زاخرٍ كما يقول بعض الأساتذة، وهذا رأيي.

فالتفت الأستاذ إلى زملائه، وقال: إننا نعد الطالب ليكون ذا نظرة أدبية

مستقلة، وليستطيع التعبير عن نظرتة هذه فى وضوح ويسر، وقد كان للطالب نظرتة الكاشفة، وتعبيره الهادئ، ولن نطلب منه أكثر من ذلك، تفضل يا بنى مشكوراً فقد أجبته! وخرجت متعجبا أن أسأل سؤالاً واحداً! ثم رأيتُ درجاتي فى الامتحان قد وصلتُ إلى النهاية المرموقة! فذهبتُ إلى شكره قائلاً: لماذا لم تسألنى فى النحو؟ قال قد سألتك لأنك لم تخطئ فى تعبيرك، لم تكن اللجنة نائمة!

دعوة حبيبة:

مضت أيام، وظهرت مجلة الرسالة حافلةً بنقاشٍ علمىٍ مثمر بين تلميذين نجيين من تلاميذ الأستاذ أحمد شفيح، هما الدكتور على العمارى، والدكتور كامل شاهين، وكانا لا يزالان مدرسين بالقسم الابتدائى، ودار النقاش حول علوم البلاغة بين التقليد والتجديد، لأن العمارى قد قرأ كلاماً للأستاذ الكبير أمين الخولى انتقص فيه جهود القدماء فى الحقل البلاغى، ونادى بالتجديد فى أمور يعدها من ابتكاره الموفق، فكتب العمارى عدة مقالات يُحاول فيها توهين ما اتجه إليه الأستاذ الخولى، ورأى الأستاذ كامل شاهين أن مقالات العمارى تحتاج إلى نقد كاشف، فرد بمقالات معارضة، وتطرق الزميلان إلى عبارات ليست من النقد الأدبى فى شىء، وتعد خروجاً عن التى هى أحسن، وقد قرأ الأستاذ شفيح ما كتب تلميذاه، فحدّد لهما موعداً لتناول الغداء لديه، وبعث بمن يدعونى مع الصديقين، وكنت لم أعرفهما من قبل، فتم اللقاء الكريم فى منزل الشيخ النبيل، وقد اتجه النقاش إلى مباحثات أدبية لطيفة، ثم قال الشيخ رحمه الله:

لقد ألف الأستاذ إبراهيم مصطفى كتاب إحياء النحو، ومع نظراته الموضوعية السديدة وجدناه ينتقص القدماء بدون موجب، فانبرى الأستاذ محمد عرفة للرد عليه فى كتاب (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة) وقد عرض كتابه على الأستاذ الأكبر الشيخ المراغى ليكتب مقدمته، ولكن الشيخ الأكبر رأى من عبارات الهجوم القارص ما يبعد عن مجال النقد العلمى النزيه، فأشار على المؤلف أن يحذف كل

ما ينبئ عن التنقيص، لأنّ الجدل لا يستقيم مع الثلب! ونزل الأستاذ عرفة على رأي الأستاذ الأكبر، ف جاء كتابه مثالا للنقد الجاد، وقد قرأت ما كتبه العمارى وشاهين، فأعجبتُ بالنظرات الصائبة، والمنطق السديد، ولكنى وجدت هجوماً بدأه العمارى على الأستاذ الخولى، وأنا لا أوافق عليه، لأنّ النقد البلاغى لا يستدعى الهجوم الناقم، ثم جاء كامل شاهين، فهاجم العمارى بعبارات لا مبرر لها، واندفع العمارى إلى مثل ما بدأ صاحبه، بل زاد عليه كثيراً، وقد دعوتكما الآن لتتعاهد على حرية النقد من ناحية، ثم على تجنب العبارات اللاذعة لأنها تسيء ولا تفيد! فما رأيكما؟

قلت: وأنا معك ياسيدى، فقال الزميلان: هذا درسٌ مفيد، ولن نحيد عن الحسنى بعد الآن!

صداقة عريقة:

توثقت علاقتى بالأستاذ الكبير إلى درجة لم تُتَح لى مع أستاذ آخر، بل لم أشهد نظيرها فيما أعلم، ولمستُ من حذبهِ على طلابه ما بلغ حدَّ العجب، لأنه كان يبذل ما يستطيع فى تحقيق رغبات مستعصية لذوى الحاجات ممن عضهم الدهر بنابه، وأذكر بهذا الصدد حادثة طريفة سردتها فى ترجمة حياته، ولكنى أعيدها لتكون مثالا للأبوة الحانية، والمروءة النبيلة: فقد زاره ذات ليلة بعض تلاميذه، وعليه من سمات الحزن والحيرة مالا مزيد عليه، فدهش الشيخ لما تلبث الطالب من الارتباك اليأس، وعجل بسؤاله عن بواعث ألمه، فقال: إن والده كان موظفاً بدائرة الأمير عمر طوسون، وقد فصل بالأمس لوشاية كاذبة، ففقد مصدر رزقه الوحيد، وهو رب أسرة كبيرة، وله طلاب بالمدارس والجامعة، وليس يدرى الطالب شيئاً عن مستقبله ومستقبل إخوته الذين يسكنون معه بالقاهرة طلاباً مثله، فصرفه الأستاذ مهدياً على أن يعود إليه بعد يومين، ولم ينم ليلته، بل نظّم قصيدة استعطاف حملها بنفسه إلى مقر الأمير بالإسكندرية، وسافر من الصباح متجهاً إلى شيخ المعهد الدينى بالثغر، وكان على صلة وطيدة بالأمير، فطلب منه أن يحدد مع

سكرتير الأمير موعداً للقائه اليوم، وشرح لفضيلة شيخ المعهد ما جاء من أجله، وسرعان ما تحدد الموعد، وتقدم الزائران فوجداً من حسن الاستقبال وبشاشة اللقاء ما شجع الشيخ شفيح على أن يُنشد قصيدته وكان مطلعها:

نحنُ في منزل الأمير ولا فضلَ لدينا يعدو لقاء الأمير

فاستمع الأمير سعيداً بما قال الأستاذ، وعرض الأمر عليه في إيجاز، فقال في اهتمام: هذا المطلب الصغير لا يستدعى أن يحضر فضيلة الأستاذ أحمد شفيح من القاهرة بنفسه، وكان عليه أن يتفضل بحديث تليفوني ليجدني طوعاً رغبتاً، ثم أصدر أمره الفوري بإعادة الموظف المفصول مع زيادة راتبه خمسة جنيهات، وكان يتقاضى عشرة قبلها! ورجع الأستاذ في المساء إلى القاهرة وهو في أكمل سعادة، لأن للمروءة مذاقاً شهياً لدى الكرام من ذوى العواطف النبيلة.

هذه قصة دالة، ولها أمثلة كثيرة، ودلالاتها واضحة لا تحتاج إلى تفصيل.

اهتمام علمي:

كنتُ في زيارة الأديب الكبير الأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي أثناء إقامته بأحد فنادق القاهرة، فحدثني عن رغبته في لقاء أستاذ متخصص في الأدب الأندلسي، لأنّ لديه بعض العضلات العسيرة التي تتطلب الحلّ على يد باحث متخصص! فذكرتُ اسم الأستاذ أحمد شفيح السيد، وحدثته بما أعلم من فضله العلمي، واطلاعه الشامل، وهو بعد أستاذ الأدب الأندلسي بالكلية، فارتاح النشاشيبي لما سمع، وكتب لي بطاقة يدعوها فيها إلى تناول الغداء معه بالفندق، وسارعتُ إلى الشيخ، فقرأ البطاقة مفكراً، وقد علاه سهومٌ لا عهد به، فقلتُ: ماذا؟ قال: يا بني: إن العلامة النشاشيبي بحرٌ زاخر، وقد ناقش الفحول من أمثال أحمد العوامري، وأحمد أمين، والرافعي، والإسكندري، فأوفى على الغاية عمقاً واستنتاجاً ودقة ملاحظة، فأين أنا منه؟ ثم إذا كان الأمر كذلك، فاذهب إليه اليوم مُدعياً أنك لم تجدني، وتحر عن موضوع النقاش لأستعد، فذهبتُ إلى الأستاذ، وعرفت منه أنّ النقاش سيدورُ حول شخصية ابن بشكوال المؤلف الأندلسي

صاحب «الصلة» وغيرها، ولم أكد أخبر الشيخ حتى عكف على قراءة مؤلفات ابن بشكوال، ثم امتد إلى قراءة ماكتب عنه من ترجمات وشذور في مختلف الكتب الأندلسية، وبذل جهداً في هذا النطاق، وكأنه يستعد لتأليف كتاب خاص بالرجل، ثم أتيحت المقابلة بعد أسبوع كما أرجأ الشيخ، وذهبت معه إلى لقاء النشاشيبي فوجدنا مانعاً من كرم اللقاء، وبدأ النشاشيبي يذكر ملاحظات عن ابن بشكوال، والأستاذ يجيب في دقة، ويعلل ويشرح في إسهاب، حتى بلغ مبلغاً كبيراً من نفس إسعاف، وشد على يده مريحاً، وأهدى إليه بعض كتبه في عبارات تصفه بالأستاذية الكبرى، ورجع الشيخ سعيداً مبتهجاً باللقاء، ولكنني قلت له في الطريق: لماذا أحجمت عن نقاش النشاشيبي قبل أن تعرف موضع البحث؟ إنني أناقشه كما أشاء بدون تهيب، فقال الأستاذ: يارجب، أنت لا تزال طالباً، وإذا أخطأت في نقاشك فلن يقول إن طالباً قد أخطأ، لأن الطالب مظنة الخطأ، وقد قدمتنى إليه أستاذاً للأدب الأندلسي بكلية اللغة العربية بالأزهر، فإذا تعرّضت للنقاش في مسألة لا أعلم عنها شيئاً، وقلت ما لم يقنع الأستاذ فماذا يكون نظره إلى؟ بل ماذا يكون نظره لعلماء الأزهر وأساتذة الكليات؟!

موقف آخر:

أعدّ أحد طلاب الدراسات العليا بتخصص الأدب رسالة الأستاذية (الدكتوراه) بعد أن بذل جهده الجاهد سبع سنوات لا يفتّر عن العمل الجاد، وألفت لجنة المناقشة برئاسة الأستاذ الكبير حامد محيسن عضو هيئة كبار العلماء، وعميد الكلية السابق، ففوجئ الأستاذ أحمد شفيق بمجيء الطالب إليه شاكياً متألماً، لأن رئيس اللجنة قابله بنفور شديد، وأخبره أنه أكثر من المراجع إلى حد الإتهام، حتى ليكاد يكون ناقلاً لا باحثاً، فأمر الشيخ شفيق بإحضار نسخة من الرسالة، سارع الطالب بتقديمها إليه، فقرأها قراءة مستوعبة، ثم ذهب إلى منزل الأستاذ حامد محيسن، ليسأله عن سرّ غضبه على الباحث، فقال الشيخ - وكان ذا حدة - إن كثرة المراجع التي يتباهى بها في آخر الرسالة تدلّ على أنه ناقل فقط! قال الشيخ: لقد عكفت على قراءة الرسالة أسبوعاً، ووجدت الدارس قد أجاد في مواضع مختلفة،

وأخرجَ مذكرةً من جيبه سردَ فيها مواضع الإجابة، وإذا كان قد أكثرَ من المراجع فهذا مما يُحمدُ له، إذ ذلَّ على وفرة الاطلاع، فقال الشيخ: لستُ معك في هذا المنحى فضحك الشيخ شفيح وسأله: هل لو اقتصر الباحث على مرجع واحد أيكونُ قد أدَّى واجبه على نحو يرضيك! فقال الشيخ وكأنه يكابر: المرجع الواحد إذا كان أصيلاً يكفي! إن السطر الواحد من الكتاب الجيد يتضمن المحمول والموضوع، والمنفى والمبث، والمسند والمسند إليه، وكلّ هذه مجالات للبحث العلمى الدقيق فماذا تقول يا شفيح! فقال الشيخ: لقد نسيتُ أن الدارس مبتدئ، وأنه يكتب أول بحث علمى جاد، وسيستفَعُ بملاحظاتك وتوجيهات اللجنة عند النقاش، وحينئذ سيسلك النهج الذى سترتضيه، ثم إن زملاءه ليسوا أفضل منه، وقد قُبلت رسائلهم، فلماذا لا تخصصه بفضلك، فيكون تلميذاً من جنودك، يذكر لك فضل التشجيع والتنويه! قال الشيخ: تلك هى المسألة: الميزان ليس واحداً، فما أدقّ فيه لا أجد أحداً يلتفت إليه؛ لن أكون نحساً على الطالب، فابعثه لأحد له موعد النقاش، قال الشيخ: جزاك الله خيراً، وتابع المسألة، وحضر مجلس النقاش، ونال الطالب ما يرتضيه!

هذه بعض مروءات الشيخ الكريم! وأقول بعض المروءات، لأن لدى من أمثالها الكثير!

الأستاذ على أدهم

يهتم الأستاذ على أدهم بما يبدع من آثار فكرية، فمقالاته الواحدة تُعطي من الشمار الشهيية، ما يشبع ويمتع، أما كتابه ذو الفصول فعملٌ منسق متكامل، يُشبه البناء الهندسى القائم على أسس وطيدة، وكل لبنة من لبناته ذات قوة متماسكة فيشد البنيان بعضه بعضاً ليبقى ناهضاً شامخاً، وكنت ألحظ بعده عن الأضواء، وعكوفه الزاهد فى صومعة الفكر، فأعدّه ناسكاً يؤثر الانزواء، ولكنّ الذين صادفوه يذكرونّ مراسمَه القوى فى المجادلة، وخبرته الدقيقه بالنفس البشرية، وقد أوحى له مزيداً من الترفع حتى ليعتبره الناس كبرياء لا ترفعاً، والكبرياء حبيبة أثيرة حين تعلقو على الأديعاء والمتشامخين، أما الأصلاء فزملاء فى مستوى خُلقي متقارب، فلا ترفّع ولا استعلاء.

وقد رأيت من واجبي أن أشيد ببجائه ضليع مثله، فكتبتُ مقالاً بمجلة الثقافة، قلت فى مطلعته:

منذ أخذتُ أقرأ للأستاذ الكبير على أدهم مقالاته الرصينة، وأنا أتذكر به العقاد فى كل فصل أقرؤه، وأعقد موازنةً صامتة فى نفسى بين ما قاله أدهم، وما يمكن أن يقوله العقاد لواتجه إلى معالجة ما عاجلهُ أدهم من أفكار، إذ قرّ فى ذهنى أنّ أدهم أقربُ الكاتبين فى العريية إلى منحى العقاد، وليس معنى ذلك أنه يحتذيه، فللأستاذ أدهم شخصيته الخصبه فى كل ما يكتب، بل إنك لتجدُ فيه واقعيةً واضحة، وتسامحاً متواضعاً، وإغضاء صافحاً، فيستأثر بشعورك استثنائاً لا تحيد عنه، ولا أدرى لماذا لا تُعدّ الدراسات العلمية لإنتاجه الحافل الخصب؟ ولماذا

يتعداهُ الباحثون إلى أناسٍ لا يبلغون مبلغ تلاميذه؟ يُخيّل إلى أن شخصية أدهم قد ساعدت على هذا التجاوز المعيب، فالرجل هادئ قانع، لا يحاول أن يعقد مودّات ذات نفع مزدوج بين الكتاب فيشيد بهم، ويشيد وابه على نحو مانرى».

وامتدّ المقال إلى صفحات صادقة تُحلّل آراء الكاتب الكبير في نَفَرٍ من شعراء العربية، وكان أخشى ما أتوقّعه ألا يجد به الأستاذ ما ينبئُ عن الحقيقة العلمية التي أحاول تسجيلها، ولكن الرجل العاطف المشجّع قد كَتَبَ إلى خطاباً حاراً نشره الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدسوقي بعدد سبتمبر سنة ١٩٧٩ من مجلة الثقافة، قال فيه:

«لقد أسعدنى الحظ بالاطلاع على مقالك القيم في الثقافة، وكنتُ أشعر في خلال قراءته أنى أطالعُ فصلاً من فصول أمثال سانت بييف، وماثيو أرنولد، واسينجاندن، وغيرهم من أساتذة الأدب والنقد، الذين طالما استمتعتُ بالاطلاع على آثارهم الأدبية، ودراساتهم في النقد، وأرجو الله أن يمتعك بالصحة والعافية، لمتابعة السير في هذا الطريق، الذى لاشك في أنه سيعود بالنفع الجزيل على حياتنا الأدبية، ويسمُو بالنقد إلى المستوى الرفيع، ويرقى بالثقافة المصرية العربية!».

هذا ما قاله الأستاذ في فاتحة خطابه، وهو تشجيع هادف لكاتب كل ما يملكه هو الصدق المخلص فيما يكتب ويُقرّر، وكنتُ قد أشرتُ إلى دراسة نقدية كتبها الأستاذ أدهم عن الشاعر الكبير عبد الرحمن شكرى، فقلتُ إنى أحسُّ إحساساً قوياً أن أدهم المتحفظ قد كتبَ المقال، وفى ذهنه أن صديقه الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد سيقراً ما يكتب، وليت شعرى أيصّدق أحد أن العقاد الدقيق يضع اسمه على كتاب (الديوان) دونَ أن يعرفَ سلفاً كل ما سيكتب فيه؟».

قلتُ ذلك فى خاتمة المقال، ولم يشأ الأستاذ أدهم أن يسكت عمّا كتبت، فقال فى خطابه: إنه عاصر فترة الخلاف، وإنه يعرف من خفاياها ما يجهله الكثيرون، وقد كان الأستاذ العقاد يقدرُ شكرى تقديراً عالياً، ولم أسمع منه كلمة سوء فى أدب شكرى أو شخصيته».

ثم مضت أيام، ووصلنى خطاب من الأستاذ أدهم يعلن أنه يعانى بعض عقابيل المرض، ويسعده أن أزوره حين أمر بالقاهرة، وكنت أعرف احتجاج أدهم وعكوفه، فلم أشأ أن أبدأ بالزيارة التى أحرص عليها كيلا أتطفل على خلوته، فلما جاءنى خطابه الكريم، بادرت لأطفى ظمأ أحس به، وليس من السهل أن يظفر الإنسان بحديث مع أستاذ فى مستوى أدهم، والغناء كثير.

لقاء فريد:

وأقول: إنه لقاء فريد، لأنه لم يتكرر مرة ثانية، فهو فريد من هذا الناحية، كما أنه فريد من ناحية أخرى أهم وأعظم، إذ أتاح لى من الفوائد الجزيلة ما أضاء بعض الظلمات فى أمور كانت تشكل على، وقد بدأ الأستاذ ببناء تشجيعى يحاول أن يدفعنى به إلى الأمام، ثم قال إنه يغتنم هذا اللقاء ليتحدث عن علاقة شكرى بالعقاد! فقلت: ما أحب إلى أن أسمع ما أعتز به من ناقد خبير!

قال الأستاذ: قبل أن أتحدث عن شكرى والعقاد أعلن أن نفرًا من الكاتبيين كان من مهمهم أن يوقدوا اللهب بين شكرى والعقاد، والعقاد غضوب لا يصبر على مهاترة، وهو يعرف تمامًا أن «شكرى» بعيد كل البعد عن محاولات من يرون إذكاء الواقعة بينه وبين شريكه فى البناء التجديدى للشعر، كما يعلم أن هؤلاء لا يقصدون تمجيد شكرى قدر مما يقصدون انتقاص العقاد! كما يحاول فريق آخر أن يرتفعوا بمطران إلى حيث يجعلونه كل شىء فى التجديد الشعرى، ليضيع نصيب شكرى والعقاد والمازنى من التجديد هباء!

يعرف ذلك العقاد جيدًا، فيأسف للظروف التى أدت إلى مخاصمة المازنى لشكرى، فجعلت مدرسة التجديد الشعرى التى نهضت على أكتاف هؤلاء الثلاثة مثار القال والقال!

قال الأستاذ أدهم: وهذا ما أحب أن أؤكد قبل أن أشرح حقيقة العلائق بين الأصدقاء الثلاثة، فالعقاد معجب بشكرى كل الإعجاب، وشكرى لا يقل عن صاحبه إعجابًا به، ولكن كيف بدأ التلم الصادع فى هذه الأخوة الأدبية الحميمة؟

لقد كانَ المازنى أسبقَ الكُتَّابِ فى الاعترافِ بمنزلةِ شكرى، وقد كَتَبَ نقدًا عن حافظِ إبراهيمِ جمعه فى كتابِ خاصٍّ، وقد انخفضَ بشعرِ حافظٍ ليرتفعَ بشعرِ شكرى، فى مجالِ موازنةٍ نقديةٍ حافلةٍ بالشواهدِ الشعريةِ مما قاله حافظٌ وشكرى معًا! وقد قالَ المازنى فيما قال: إن حَافِظًا لا يقولُ الشعرَ إلاّ فيما يُسألُ فيه من الأغراضِ، بيدَ أنه على ما به من ضيقٍ فى المضطربِ، وتخلُّفٍ فى الخيالِ، كانَ أفصحَ لسانٍ تنطقُ به الصحفُ، أمّا شكرى فشاعرٌ لا يصعدُ طرفه إلى أرفعِ من آمالِ النفسِ البشريةِ، ولا يصوبُه إلى أعمقِ من قلبها، وهو لا يبالغُ كحافظٍ فى تحبيرِ شعره وتديبجه، بل حسبُه أن يُسمعكَ تدفقَ الدماءِ من جراحِ الفؤادِ، وأن يُفضى إليك بنجوى القلوبِ، وأن يُريك عيونَ الندى على حدودِ الزَّهرِ، وافتراقِ ضوءِ القمرِ على مكفهرِ القبورِ، ووميضِ الابتساماتِ فى ظلامِ الصدورِ، وأن يغوصَ بك فى لججِ الفكرِ، ليكشفَ لك عن معانٍ لا يُدرِكها التعبيرُ، ويتناولُ أبسطَ معانى الطبيعةِ والعقلِ وأشدّها ارتباطًا بالحياةِ، واتصالًا بالنفسِ، ثم يصوغُ لكَ منها شعرًا نقيَ المستشفِ، كثيرَ المآثرِ، جمِ المحاسنِ».

هذا ما قاله أدهمُ بمعناه، وقد رجعتُ إلى ماكتبَ المازنى لأنقلَ اللفظَ الحقيقى، وقد جاءَ المغزى مطابقًا كلَّ المطابقة لما قال الكاتبُ الكبيرُ.

ثم قال أدهمُ: كانَ المنتظرُ من شكرى بعد هذا الثناءِ الصادقِ، أن يكونَ هيَّـنَ النَّبْرةِ مع المازنى، وإذا آخذُه على شىءٍ فمؤاخِذَةٌ الحبيبِ الودودِ، ولكنّه حينَ أصدرَ ديوانه الخامسَ صدره بمقدمةٍ هاجمه فيها هجومًا عنيفًا، فقال: إنّه لا يراعى حرمةً، ولا يردعه ضميره عن السرقاتِ العظيمةِ، وضربَ الأمثلةَ بما سرقه المازنى عن «هينى» الشاعرِ الألمانيِّ، و«لويل» الشاعرِ الأمريكيِّ، و«أديسون» الكاتبِ الإنجليزيِّ».

وطبيعى أن المازنى قد تأثرَ بأسلوبِ صاحبه النقدى، إذ كانَ فى مُكنته أن يجعلَ النصيحةَ فى محادثةٍ شخصيّةِ، أو فى رسالةٍ خاصةٍ بين الصديقينِ، وإذا لم يجدْ

شكرى بدأ من الإفصاح للقراء، فَبالتي هي أحسن، لا بالتي هي أقبح فنفس المازنى عن غضبه بمقالات نارِيّة تناولت شعر شكرى، فقلبته من وضع إلى وضع، وبذلَ العقاد جهده فى لَمّ الشمّل، فوفّق إلى وقتٍ قريب، ثم عاودَ شكرى النّقد عاصفًا على صفحات جريدة عكاظ التى كان يصدرها الشيخ فهيم قنديل، ولم يقصر هجومه على المازنى، بل امتد إلى شعر العقاد، وبالغ فى القسوة إلى حد مستغرب، وكان المظنون بالعقاد أن يمتشق القلم ليأخذ بحقه، ولكنّه طوى صدره على أسف لما كان، وترك للمازنى أن يقول ما يشاء!

وبمراجعة هذه الحقائق، نجدُ أن المازنى قد أخطأ أولاً حين سَطَّ على أدب غيره، ونجدُ شكرى كان مُحققا حين لم يسكت عن هذه السرقات! ولكنّه كان مُخطئاً فى اندفاعه القاسى، وتورطه إلى الإفداع فيما كتب بعكاظ، ثم فى انتقاله إلى العقاد، وهو لم يُسلف إليه جريرة! وحين ظهر (الديوان) أسفَ أنصار التجديد حين قرءوا كلام المازنى عن صاحبه، لأنّ ذلك يُوحى بانتهاء مادعاً إليه المازنى ورفيقاه من خطوات تجديدية، إذ لو صار شعر شكرى كشعرِ حافظ مثلاً، ففيمَ كانت عواصف النّقد العنيف؟

إنصاف شكرى:

قلت: وهل كانت صلة الأستاذ بشكرى تقرب من صلة بالعقاد؟

قال أدهم: ذكرتُ فى مقالى عن الأستاذ شكرى بمجلة المجلة أنّه كان أستاذاً بمدرسة رأس التين الثانوية، وكانَ متميزاً بين الأساتذة، بقوة علمه، وجدة أفكاره، وقوة شخصيته، وكنا نعرف مكانته الأدبية، ونقرأ ما أصدرَ من دواوين الشعر، ونلمسُ تقديرَ المجتمع المدرسى لفضله! وقد امتدتُ صلّتى به ولم تنقطعُ بالنسبة إلىّ، وأنا أعجبُ للذين يقولون: إن الرجلَ كان سَوْداوىّ المزاج، وحيداً مُعتزلاً، فأنا أعرّفه قُطباً لدائرة الأدباء بالإسكندرية، يجلسُ معهم ليفيضَ فى

شئون الأدب والثقافة، وهم يسمعون لآرائه، كما يستمعون لأستاذ جامعي، وفيهم المهندس، والمحامي، والطبيب، والاقتصادي، وكلهم من رجال الفكر، وكانت صحف القاهرة ومجلاتها الأدبية تُسارع إلى نشر أدبه شعراً ونثراً، فما يُقال عن اعتزاله لم يكن دائماً، ولم يكن من طبيعته، ولكنه اضطر إلى اعتزال الأدب فترةً محدودة، لظروف تطرأ على أكثر الناس، وفي حيوات كبار الشعراء في الشرق والغرب سنواتٌ غير خصيبة، ولكنها فترةٌ تنقضي، ويعود الموح إلى تدفقه، وسنواتٌ شكرى في الثلاثينات كانت حافلةً بالنتاج الزاخر في المقتطف، والهلال، والرسالة، والثقافة، وأذكرُ أنه والى نشر مقالات نقدية بالرسالة كانت مصدر إعجاب المثقفين، وقد قرأها العقاد وأثنى عليها كثيراً كعهده بإزاء ما يكتب شكرى، ولو جمعت آثاره النثرية في هذه الفترة لمألت عدة كتب، ولن يكون هذا الفيض الممتد إلا من فكرٍ يقظ مقبل على الحياة والأحياء.

فقلت: أعرفُ هذا جيداً، وقد قرأتُ أكثرَ ما أشرتُم إليه، ولكنى أسأل عمن تعنون، حين ذكرتم من يمدحُ شكرى لإغاظة العقاد؟

فقال الأستاذ أدهم: أنت مثقفٌ مستنير، ولا أزيدك قليلاً أو كثيراً، حين أذكر أن الدكتور زكى أبو شادى قد أصدرَ عدة مجلات تهاجم العقاد، لأنّ العقاد لم ينظرُ إلى أدبه شعراً ونثراً نظرة صاحبه إليه، وأبو شادى مكثرتُ أتى عليه وقتٌ لا ينقطع فيه عن النظم، وأقولُ النظم عن قصدٍ، لأنّه لا يفرق بين خطرات النفس التى تُوحى الشعر، ووثبات العقل التى تكسبه سعةً وعمقاً، وبين الموضوعات العامة التى لم تتغلغل فى النفس الشاعرة لتكشفَ عن مكنون مستنير، وقد جمَع حوله فريقاً يُشنون على كل ما نظم، وقد يوازنون بينه وبين العقاد، والعقاد لا يرضى بالزيف، فجابَه هؤلاء وجابهوه، وبعضهم رأى فى مديح شكرى ما يهمل ذكر العقاد، مع أن لكلِّ نجم مداره وضوءه واثلاقه، ولا تكفى السماء بفرقد واحد، ولكن هكذا كانوا يتصورون!

قلت: إننا أفرطنا كثيراً في الحديث عن شكرى والعقاد، وربما كان تنوع الحديث أجدى، فقال أدهم: سيتنوع إذا تكرمت بالحضور، غير أنني أردت أن أزيل شبهة أحسست بها في آخر مقالك عنى بالثقافة، وأنا اهتم جداً بآراء أديب منصف مثلك!

على أنى أزيدك شيئاً أتم به حديث العقاد وشكرى، فقد سارعتُ إلى تعزية العقاد بالتليفون حين فوجئت بنعى شكرى، فردّ على بصوت كلّه دموعاً وحرقة، فلم أكتف بالتليفون، وسارعتُ إلى لقائه بمنزله، فوجدته ينظم قصيدة حارة في رثائه، ويقول: حان الرحيل يا أخى، لقد رحل شكرى كما رحل المازنى، ولا بد أن يرحل العقاد! إذا لايحلو العيش بعدهما، وفي اليوم التالى ظهرت جريدة الأخبار، وبها صورتان صورة شكرى وصورة العقاد باكيًا، ثم قصيدة العقاد في رثاء شكرى ومطلعها:

بعد إبراهيم شكرى اليوم أودى قُربَ الرحيل، لقد قارب جداً
وقراءة هذه القصيدة تكشف عن معانٍ كثيرة، يعرف بعضها قوم، ويعرف
جميعها أصدقاء الفرسان الثلاثة، فهى وحدها تاريخ حافل، لعهد مجيد.
ولاحظت أن الأستاذ قد تعب كثيراً، فودعته شاكرًا، وقد زاد فى عيني مهابة
وإجلالاً..

الإمام محمد زاهد الكوثري

فى شارع الصنادقية بميدان الأزهر - وهو يُشبه الحارة الضيقة، تقومُ على جانبيه حوانيت صغيرة، أكثرها يمتلئ بالكتب الأزهرية القديمة، بين متونٍ وشُروحٍ وحواشٍ، فى هذا الشارع شاهدتُ شيخاً ربعة، أشرب وجهه بالحمرة، وله شبيبة ذات وقار، يرتدى كاكولةً متواضعة، وعمامةً ذات طبقات أكثر مما نعهد، وأمامه مجموعةٌ من الكتب يقرأ بعضها فى صمت، فوقفتُ أرصدهُ عن كتب، ولكنى وجدتُ رجلاً من العامة يدنو منه، ويحدثه، فخطوتُ لأسمع سؤالاً عن الطلاق المعلقُ يُلقيه السائل فى وجل، منتظراً الإجابة من الشيخ، ثم أدھشنى أن يحكم الرجل فى إصرار بوقوع الطلاق، مع أنى أعلم أن قانون المحاكم الشرعية الذى صدر فى مصر سنة ١٩٢٩ يمنع وقوع هذا الطلاق استناداً إلى أئمة من غير أصحاب المذاهب الأربعة، وهم فقهاء أجلاء ذوو شأن فى التشريع، وقد أراد القانون بذلك أن يُيسر على من يُحلون روابط الأسرة ذات الأولاد فى ساعة غضب ليتمكن الزوج من التثام الشمل رحمةً بأفلاذ الأكبَاد، فرأيتُ أن الحق بالسائل لأقول له: إن الأمر فى مصر يجرى على غير ما قال هذا الشيخ، وأظنه محدود الاطلاع، فلا تركزْ له، وقد استبشّر الرجلُ بما قلت، وأخذ يدعو الله أن يجزىنى بالخير!

مضت أيام، وذهبتُ لزيارة أستاذى الجليل الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بكلية اللغة العربية فوجدت منزله عامراً ببعض الزوّار من العلماء، وهم يتحدثون عن شيخ جليل انتقل إلى رحمة ربه، هو الشيخ خليل الخالدى مُفتى القدس، وأحد الوجهاء الكبار ممن تولوا المناصب الدينية الكبيرة فى عهد الخلافة العثمانية،

وقد أجمعوا على تزلّعه المتين في معرفة المخطوطات العربية في شتى فروع الثقافة الإسلامية، إذ زار أكثر العواصم الإسلامية - والأوربية أيضاً - ليقراً ما تضمه المكتبات الشهيرة من المخطوطات، وله خبرةٌ بخطوط العلماء، ومعرفةٌ دقيقةٌ بأحوالهم المعيشية، ومذاهبهم الفقهية، وآرائهم المختلفة في شتى فروع الثقافة، حتى صار المرجع الأول في بابهِ! هكذا قال القوم، ولكن الأستاذ الطنطاوى صاحب المنزل عقبَ على هؤلاء قائلاً: إنَّ الأستاذ الكبير الشيخ محمد زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الإسلامية في تركيا من قبل، ونزيل القاهرة الآن يفوقُ الشيخ خليل الخالدي في إلمامه بالتراث الإسلامى، لأنَّ الشيخ الخالدي قد اقتصر على المؤلفات العربية وحدها، أما الشيخ الكوثرى فيقرأ التركية، والفارسية، والجركسية، والعربية، وقد هضم كل ما قرأ، وأصبح المرجع الأول في هذا المجال، وعليه يعتمدُ ناشرو المخطوطات، ومصححو الموسوعات شرقاً وغرباً، وله باع طويل في المناقشات العلمية، وقد وقف على نشر كثيرٍ من أمهات الكتب معلقاً ناقداً مصححاً، والشيخ الخالدي - على فضله المشكور - لم يخلُ مكانه بعد، إذا أطال الله في عمر الكوثرى.

سمعت مادار من الحديث عن الخالدي والكوثرى، فاشتقت إلى رؤية الكوثرى، وانتظرت حتى انقطع الحديث عن الرجلين، فسألت الشيخ الطنطاوى كيف أحظى بمجالسة الكوثرى؟ فابتسم، وقال في دعابة: لايفوتك شيء يا رجب، إن الشيخ الكوثرى رجل متواضع على جلاله فضله، وهو دائماً يصلّى الجمعة في مسجد محمد أبى الذهب الذى يقابل الأزهر، فإذا صليت الجمعة به، فستجد جوار المحراب شيخاً وقوراً يتحلّق حوله الكثيرون، وكلُّ يسأل عن معضلة، فهذا باحث فقهي، وذاك عالم أصولي، وذلك رجل منطوق وجدال، وكلهم يسأل عن المراجع، أو يطلب الفتوى، والشيخ يجيب كل سائل بما يشفى غلته، ويظل في مجلسه حتى تحين صلاة العصر، فيؤديها وينصرف سعيداً، وقد قام بمجهود عدّة أساتذة ذوى اختصاص، إنه بحر لا ساحل له، فاذهب إليه إذا أردت.

دفعنى حديث الأستاذ إلى رؤية العلامة الكوثرى، وكانت دهشنى عظمة حين وجدت الكوثرى هو بعينه صاحب فتوى الطلاق فى شارع الصنادقيّة، فتذكرت أنى قلت عنه من قبل: إنه محدود الاطلاع جهلاً منى بمنزلته، وقلت فى نفسى: أبلغ بى الغرور أن أحكم على إمام كبير بما يخالف الواقع، مع أنى لا أبلغ مبلغ تلميذ صغير من تلاميذه! إن للرجل الكبير رأيه الخاص، ولا يتقيد فى فتواه بقانون لا يراه صائباً من وجهة نظره، ثم تذكرت أنه صاحب كتاب الإشفاق فى أحكام الطلاق وقد كتبه رداً على الأستاذ الفقيه الشيخ أحمد شاكراً حين انتحى غير منتحاه! فإذا كان قد أفتى بوقوع الطلاق المعلق فهذا ما قامت لديه البراهين على صحته، فهو إذن إمام غير مأموم!!

حرصتُ على أن أصلى الجمعة كثيراً بمسجد أبى الذهب، حُباً فى رؤية الشيخ ومن حوله من السائلين، وقد لحظ اهتمامى بما يقول، وانكببى على تسجيل بعض آرائه فى كناشة أعددتُها لمجلسه، فبادرنى متفضلاً بالسؤال عن اسمى، وماذا أعمل، فعرفته بأنى طالب فى كلية اللّغة العربية بالسنة الثانية، فقال فى ملاطفة: وفقك الله، ثم سأل: لماذا تحضرُ دون أن تسأل؟ وكنتُ حينئذ مشغولاً ببحث أعدّه عن الشاعر المغنى العباسى جحظة البرمكى، فتجرتُ على أن أسأله عن مراجع جحظة، فسكت هنيهة، ثم نظر إلى ليقول فى قوّة، بنى ماذا يعجبك فى أمثال جحظة! إنه مطرب شارب خمر، وواصف مجون؛ له ترجمة كبيرة فى معجم الأدباء، وأولى بك أن تبحث عن أصحاب الاتجاه الخلقى الرفيع من الأدباء أو العلماء! يا بنى إن الشعراء - وجلّهم غير ملتزم - قد أخذوا نصيباً كبيراً من اهتمام الباحثين فى مصر، وأنا لا أمنع أن نبحث عن شاعر قوى الأسلوب، متعدد الأنحاء، ولكن أمنع أن نبحث عن الصغار ممن لا يزيدون الناس إحساساً أو فكراً، بل يدعون إلى منكرات يشمئز منها المؤمن الملتزم! إن كتاب الأغانى قد سيطر على الأدباء أكثر مما يلزم، مع أن طالب الأزهر لو قرأ كتاباً مثل طبقات الشافعية للسبكي لوجد من الأعلام من يفوق مائة شخص من أمثال جحظة البرمكى، لا تغضب على يابنى فأنا أقول ما أعتقد!

سكتُ قليلاً، فقال الشيخ: هل تسمعي شيئاً مما أعجبك من شعرِ جحظة؟
فقلتُ: يعجبني مثل قوله:

ورقٌ الجوُّ حتى قيل هذا عتابٌ بين جحظة والزمان

فابتسم الشيخ وقال: بيتٌ حسن، ولو ترك الشاعر مجونه، وأتى بهذا الطراز
لكان موفقاً، لقد قلتُ لك رأياً يابئاً.

واتفق أن قابلتُ الأستاذ محمد الطنطاوى بعد محاورتي مع الشيخ، فذكرتُ له
كلَّ ما دار بيني وبينه، فسأل الشيخ الطنطاوى كالمتعجب: أقال الكوثرى لك ما
يدل على ارتياحه لطبقات الشافعية؟ قلت: نعم.

فقال: كم يمتلئ السجن بالمظلومين، إنهم يأخذون على الكوثرى تعصبه
الشديد لفقهاء الأحناف، وهاهو ذا يمدح طبقات الشافعية أو لو كان متعصباً أما
اختار كتاب (طبقات الحنفية)؟! قلت: ياسيدى، لا شبهة هنا فى التعصب أنا مثلاً
شافعى المذهب، أفئن أفئتُ بما أعرفه من فقه الشافعية أكون متعصباً لهم، أم أكون
مجيئاً بما أعلم! قال الشيخ: هذا حق، كلام الناس كثير ولا معنى له.

وكان النبهاء من رجال الأزهر فى الأربعينيات يلتفون حول جماعة المفتى الأكبر
الشيخ عبد المجيد سليم، وهم من صفوة المفكرين من العلماء، وفى طليعتهم
الشيخ محمود شلتوت، والدكتور محمد البهى، والأستاذ محمد محمد المدنى،
ولهم باع طويل فى البحث التجديدى، ومناقشة القديم الذى تبدو به مظاهر
الضعف، ولكن الأستاذ محمد زاهد الكوثرى قد وقف من هذه الجماعة موفقاً
معارضاً: ينقد فى شدة، ويهاجم فى ضراوة، ويرجع باللائمة على الإمام محمد
عبده، والإمام المراغى إذهما فى رأيه مصدرُ الفتاوى الجريئة، وأذكر أن المفتى
الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم قد استفتى فى لباس (القُبعة) فأجازها معتمداً على
نصوص استمدها من كتب السابقين، وموافقاً ما سبق أن قرره الإمام محمد عبده
من قبل، فثارت نائرة الشيخ الكوثرى، وكتب مقالات حارة لسنأ نقده من أجلها،
ولكن حدثها البالغة، وجنوحها إلى التهجم الواضح جعلها تحيدُ عن المجادلة

بالحسنى، بل إن الأستاذ الكوثرى قد تورط في استدلاله بالآية الكريمة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ﴾^(١).

مستنبطاً أن لبس القبعة من بعض مظاهر هذه التولية المنهى عنها، ولم يحصر الهجوم على مقال المفتى الأكبر فحسب، بل تناول الشيخ شلتوت، والشيخ المدنى، مع أنهما لاصلة لهما بهذه الفتوى! كما تناول الإمام محمد عبده بالتخطئة الصريحة، وتوالت مقالات الكوثرى في مجلة الإسلام لترمى شواظها المحرق، وكأنه يهاجم أعداء لا زملاء في جبهة واحدة، فسأنى كل الإساءة أن يبعد الكوثرى في غلوه هذا البعد، وهو من هو، رجاحة عقل، وبعد نظر، فصممت على أن أسأله العدول عن الهجوم الجارح، وجئت إلى مسجد أبى الذهب متحمساً، وبدأت القول قبل أن يسأله أحد من تلاميذ الحلقة المعهودة، فذكرت فضل المفتى وشيعته، ونظر الأستاذ إلىّ في غضب مكتوم، ثم واجهنى بقوله: أنت يا بنى طالب صغير فى كلية تدرّس علوم اللّغة لعلوم الدين، ويّجب أن تصبر طويلاً حتى تفهم ما أعنيه، إن مجلة الرسالة التى تنشر للمفتى ولشلتوت لاتنوى الخير للمسلمين، فتسرعت قائلاً: سيدى إن الرسالة هى المجلة الرفيعة المستوى التى تفوح بعبير الإسلام، ولها صوتها المسموع، وأنت حين تحاربها متكلماً وكاتباً إنّما تحاول أن تهدم قلعة من قلاع الإسلام! فحوّل الأستاذ وجهه عنى، والتفت إلى القوم يغيّر مجرى الحديث.

وقد انقطعت عن المسجد بعد ذلك محاذراً أن أثير غضب الرجل الكبير، ثم عرض لى أن أشتري بعض الكتب من مكتبة الأستاذ حسام الدين القدسى، بجوار دار الكتب المصرية، فما كاد الأستاذ حسام يرانى حتى صاح بى: لماذا انقطعت عن مجلس الإمام الكوثرى؟ إنه سأل عنك كثيراً، وكان الأستاذ حسام الدين ممن يحرصون على حضور مجلس الجمعة، وقد سمع محاورته لى من قبل بشأن (جحظة البرمكى) ومن التوافق أنى نشرت بالرسالة بحثاً عن جحظة، وقرأه الأستاذ حسام قبل أن أزوره، فقال متضحكاً، لعلك نشرت مقال جحظة لتجهر

(١) سورة المائدة الآية ٥١.

بمخالفة الأستاذ؟ فقلت كلاً والله، المقال قد شغل تفكيرى، وسهلت على صياغته فبادرتُ بنشره دون أن أتذكر كلام الأستاذ.

كان فى الأستاذ حسام الدين القدسى أنسٌ وملاطفة، فأشار على أن أجلس معه بعض الوقت ليحدثنى عمّا أجهل من أمر الكوثرى، ولا زلتُ أذكر من حديثه الجيد أن الرجل زاهدٌ كاسمه، وأن الأستاذ «محمد أبو زهرة» قد لمس ما يعانىه من ضيق فى الرزق، فسعى إليه كى يكون أستاذاً للشريعة الإسلامية بقسم الدراسات العليا لطلبة كلية الحقوق بالقاهرة، كى يتسع له المورد على نحو كريم! والأستاذ الكوثرى جديرٌ بأن يفيد الطلاب، وأن ينشئُ جيلاً من الباحثين، ولكن الشيخ قد اعتذر لأنه يُعانى آلام الشيخوخة، ولا يستطيع أن ينهض بالتدريس كما يحب، وطالَ رجاءُ أبى زهرة وطالَ امتناع الشيخ، لأنه لا يريد أن يقصرَ فى الشرح! هكذا تخيل الرجل، مع أن مظنة التقصير متوهمة لا حقيقة لها، ولكن تقدير المسئولية العلمية حال دون التنفيذ.

ثم قال الأستاذ حسام، وشيء آخر أذكره عن الكوثرى، لقد قام بتصحيح مجلدين كبيرين من كتب التراث وكتب لهما مقدمة حافلة، مع تعليقات كثيرة تأخذ نصف الصفحة فى كلِّ أوراق الكتاب، فرأى الناشر الأستاذ عزت العطار أن يعطى هذا المحقق ما يعادل ثمن خمسين نسخة من الكتاب كبعوض ما يستحق من الأجر، ولكن الأستاذ الكوثرى - برغم حاجته الشديدة - قد رفض فى تصميم، وقال: إذا أخذت الأجر الدنيوى فسيضيع الثواب الأخرى، وكيف استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير؟ وواضح أن الأجر الدنيوى لا يمنع ثواب الله، إذ أن الأعمال بالنيات، ولكنه الاحتراز.

وثالثة قالها القدسى، وهى ذات مرارة موجهة - فقد ذكر أن الكوثرى منذ عامين أخذ يبيع مطبوعات مكتبته ومخطوطاتها بثمان بخس، ليجد ثمن الدواء له ولزوجته المريضة، وقد عرض عليه الأستاذ أحمد خيرى - وهو من أعيان البحيرة - أن يقوم بشراء ما يلزم من الدواء، فرفض مُصراً مستنكراً، وقال: إن ذلك سيرهقه نفسياً فيزيد المرض!

سمعتُ هذا النوادر من الأستاذ حسام، فكنت بين الإعجاب بترفع الشيخ،
والأسف الحار لضياح إمام كبير، هاجر من بلده فارا بدينه من طغيان مصطفى
كمال، ثم لا يجد الراحة فى شيخوخته الواهنة وتذكرت أن ما عند الله أوفى
وأجل، ولن يضيع أجر المحسنين، فكان هذا عزائى...

الأستاذ صديق شيبوب

ظل الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب مدى أربعين عاماً قائماً على تحرير الصحيفة الأدبية بجريدة البصير، وله كل أسبوع مقالٌ نقدي ، أوبحث أدبي، وتحليل لموقف اجتماعي، هذا غير محاضراته في أندية الإسكندرية، إذ كانت الحركة الأدبية بها لعهد جياشة فائرة، تكاد تنافس القاهرة، لولا ماللعاصمة من قدرات مادية علمية رجحت بها على الثغر، ولكن إذا ذكر التاريخ الأدبي للإسكندرية في الحقبة الماضية فللأستاذ صديق شيبوب مكانه المشهود، ودوره المجيد.

وقد انتقلت سنة ١٩٤٩ من القاهرة إلى الإسكندرية طالباً بالمعهد العالي للتربية بها، ولم أكن أعرف أحداً من أدباء الثغر فشعرت بوحشة كبيرة، لأنني لأستطيع العزلة بمنزلي دون اتصال برجال الفكر، وقد حدثت نفسي أن أذهب إلى جريدة البصير، فأقدم مقالا أو قصيدة تكون بدء التعارف بالأستاذ صديق، وسأجد من زملائه وأصدقائه من أسعد بمعرفتهم فيؤنسون وحشتي الفكرية، ولكنني تقاعست قليلاً، ثم حدث ما حتم لقاء الأستاذ صديق شيبوب إذ كان علم النفس من أهم المقررات علينا بالمعهد، وكان يتناوب تدريسه دكتوران من أساتذة المعهد وفدا من الخارج، وأحدهما ممتازٌ لا يرقى الشك إلى مقدرته العلمية، وتحليله النفسى مع نضاعة الأسلوب، واطراد التفكير، وهو الدكتور أحمد عزت راجح، أما الثانى فلانكاد نفهم شيئاً مما يقول، لأن الأفكار تصل إلينا غير متسلسلة، والاصطلاحات العلمية التى لاعهد لنا بها تتكرر فى حديثه مزدحمة محتشدة دون أن يفصح عن مدلولها، وكان يخص العلامة النموى الشهير سيجموند فرويد باهتمام؛ إذ يعيد

ويبدئ في الحديث عنه دون أن يوضح مايعنيه، فتذكرت أنى قرأت سلسلة من المقالات النفسية بمجلة الرسالة عن فرويد، كتبها الأستاذ صديق شيبوب عقب رحيله، وللأستاذ بيانه الواضح وتحليله المفيد، فهرعت إلى لقائه كى يعيرنى هذه المقالات، واستبقلنى الرجل ببشاشة عاطفة، وأذكر أنه تواضع فقال: إنى أكتب عن هؤلاء هامشيات لاتتغلغل فى قضايا العلم ودروبه المظلمة، قلت: قد تكون هذه الهامشيات حلقة اتصال بين البحوث النفسية لدى الطالب الناشئ، ووعدنى أزوره غداً حيث أحضر عدة مراجع نفسية مع مقالاته المطلوبة، وقرأت ماكتب الأستاذ، فإذا الوضوح التام والتسلسل المتصل، والمقدمات المفضية إلى النتائج فى غير رهق، فأخذت أحصل ماأجده من المعلومات تحصيلاً ميسوراً لاتكلف فيه، ووجدتنى بعد ذلك أستمع إلي مايقول أستاذنا بالمعهد العالى فلاأجده يأتى بالجديد.

إذاعة الإسكندرية :

كانت إذاعة الإسكندرية تقدم ركنا أسبوعياً للشعراء، وقد احتفل معهد التربية بمناسبة تربية، فألقيت قصيدةً بالحفل، وجاء مندوب الإذاعة ليسجل الكلمات كى تعاد فى ركن الأدب، وفوجئت بأن قصيدتى قد بترت بترأ هوى بها، لأن الحذف لم يكن متصلاً، بل وجدت البيت يذكر ثم يحذف مابعده مع أنه متصل به، وعز على أن يحدث ذلك، فذهبت إلى القائم على باب الأدب فى الإذاعة، فقابلنى باستعلاء وأعلن أن البث الإذاعى يخضع لاعتبارات يعرفها هو، ولاأعلم عنها شيئاً، فقلت له: يجوز أن تحذف بعض المقال، وجانباً من البحث العلمى، ولكن القصيدة كالقصة عمل فنى متكامل لاسبيل إلى اختصاره دون إجحاف بالفن الأدبى فقال لى، أنا أحذف من قصائد الشاعر خليل شيبوب ماأريد، وكان رحمه الله لايجد فى هذا الحذف ماينقص القصيدة، بل واصل الإذاعة الشعرية لدينا فى رضا وارتياح! فيأتى طالب بالمعهد العالى ليعترض!

سمعت ما قال المذيع، فخرجت أسفاً، ولم أصدق أن الشاعر الكبير الأستاذ خليل شيبوب وجميع المجلات الأدبية ترحب بشعره المؤثر، يرتضى هذا الوضع، وكان قد انتقل إلى جوار الله منذ بضعة أشهر فساقتني قدماى إلى مكتب شقيقه الأستاذ صديق شيبوب، ولم أكن موفقاً فى بدء الحديث، لأننى دخلت فى الموضوع بدون تمهيد، والأخ الحزين قريب العهد بفراق أخيه، فوجدت لون وجهه يشحب، وتحديث كأنه يبكى، فافزعنى أن أنكأ جراحاً تحاول الالتئام، وأخذت أعتذر لحماقتى، ولكنه ترك مكتبه، وانتقل إلى جوارى، وقال فيما يشبه الهمس: ما قاله المذيع صحيح لاشك فيه، وطالما كان موضع الشكوى من خليل، ولكنه كان يبعث كل أسبوع برسالة شعرية إلى عزيزة لديه، لايمك أن يرأسلها فى منزلها، وهى تنتظر رسالته الشعرية فى موعدها المحدد، وكان يعتمد السهولة المفرطة فى أسلوبه من ناحية، ثم يتجلى إلى التسامح مع بعض ممن يفرضون أذواقهم من المذيعين عليه من ناحية، لأنه يحرص على أداء الرسالة فى موعدها، ثم قال لى: نشر الأستاذ خليل قصيدة بالرسالة من وحى هذه العزيزة الهاجرة تحت عنوان «العمر الضائع» فى أكثر من ثلاثين بيتاً، مع أن الذى أذاع القصيدة حذف منها عشرة أبيات، وقد رجعت إلى القصيدة فوجدتها أنه باكية، وفيها يقول:

قد أرهقتنى عزلتى فكأننى من قبل دفنى قد دُفنتِ تباعاً
أصبحتُ مثل المومياء محدثاً عن غابر لى لم يكن ليذاعاً
بُعداً لحبك إنه البحر الذى غالَ الغريق وماأراه القاعاً
الصدرُ يطفح بالمرارة نائراً والنفسُ واجفةٌ تطير شعاعاً
وتمضى ذكرى هواكِ كأننى فى كل يوم أستجد وداعاً

صداقة نبيلة:

وقد خصنى الأستاذ من بعد بعطفه، وأذكر أنه عرض على أن أصبحه لرؤية «فيلم» خاص بقصة رائعة للفيلسوف الروسى تولستوى، وأخذ يشرح لى كل

ماغمض، لأن الحوار يدور بلغة لا أفهمها، وكان معنا الأستاذ الأديب نقولا يوسف، فقال لى: سأختار أنا الفيلم القادم، ولكن لا أستطيع أن أبلغ مبلغ صديق فى الشرح والتوضيح، وهكذا سعدت بالأستاذين سعادة متصلة.

وفى أحد مواسم الصيف، قابلت زميلاً عزيزاً يعد رسالة علمية عن الفيلسوف الروحى «محيى الدين بن عربى» فدار الحديث كما اتفق، ولكنى وجدته يعانى أسفاً لا يبوح بسرّه، فقلت له ماذا بك؟ فقال: لقد حضرت إلى الإسكندرية لمقابلة الأستاذ الدكتور رئيس قسم الفلسفة بكلية الآداب، لأن له بحوثاً رصينة عن ابن عربى، وبذلت جهداً كبيراً حتى ظفرت برؤيته، وحدثته عن رغبتى فى أن يرشدنى إلى بعض المصادر التى تنفعنى فى البحث تاريخياً وفكرياً، ولكنه ابتسم، ثم قال: أليس لك مشرف؟ ارجع إليه، فإذا لم يسعفك، فابحث عن موضوع آخر، وانقطع حديثه المقتضب، فخرجت يائساً، قلت له: إنى أعرف أن الأستاذ شيبوب كتب عدة فصول عن ابن عربى، فهو إذن يُلم بكثير من المصادر، وسأزوره بمكتبه فى المساء، فتعال معى، فقد يعوضك الله خيراً، وفى الموعد كنا بمكتب الأستاذ بالجزيرة، فقدمت إليه صاحبى، محدداً رغبته العلمية، فلا أنسى تحديق عينه فى وجهى لمدة طويلة، ثم ابتسامته المشرقة التى صاح بعدها يقول: عجباً لك يا أختى أنا فى منزلة من يرشد باحث الدكتوراه فى موضوع فلسفى! إن ابن عربى قد هزنى فى بعض اتجاهاته الإنسانية، فحاولت أن أقرأ عنه، وأن أفيد القارئ بتلخيصات يسيرة عما قرأت، فإذا كان صاحب هذه التلخيصات ثقة لديك ولدى الباحث، فإنى سأرجع إلى مكتبى اليوم لأحضر بعض المراجع التى اعتمدت عليها، وأقدمها إليكما فى الصباح، ولعلها تنفع! قلت: ذلك ما كنا نبقى.

وذهب الزميل فرأى سبعة كتب تتحدث عن ابن عربى، فتسلمها شاكراً، ووعد بردها بعد قراءتها، وقد فعل، ثم حدثنى أنه وقف منها على صيد ثمين لم يتهيأ له من قبل وأذكر أن صديقاً قال لى بعد هذا اللقاء أكون سعيداً لو قمت بإفادة باحث يستفيد، ولكن الفلسفة معقدة! فلا تقذف بى فى الطوفان.

الكاتب المزيف:

قرأت في جريدة البصير عدة بحوث عن الحدود بين الشريعة الإسلامية والقوانين الوضعية، كتبها محام شهير بالإسكندرية، ثم تعرفتُ به في مكتب الأستاذ صديق، فأثنت على البحوث، وقلت له: إن نشرها في مجلة إسلامية أجدى، لأن قراء البصير لايهتمون بهذه المقارنات، كما أن المجلة تبعث مكافأة مادية، وقد سر المحامي، ووعدني أن أقابله في الغد، ليكتب صورة متماسكة أرسلها أنا لمجلة «التضامن الإسلامي» بالسعودية، وتم ذلك، وأرسلت المقال فنشره الأستاذ محمد سعيد العامودي رئيس التحرير لفوره، ثم فوجئت بعد شهر بخطاب من الأستاذ يعلن أن المقال مسروق من أوله لآخره، ويحدد مكان السرقة بالصفحة ورقم الطبعة، فأسفت أسفاً شديداً، وذهبت للأستاذ صديق أعلن له ورطتي مع الأستاذ العامودي، فقال: آخر ماكنت أظن أن محامياً قانونياً يسرق المقال وينشره مرتين، مرة بالإسكندرية، وأخرى بالسعودية! قلتُ: فماذا نصنع؟ قال: سأخبره أنا إذا حضر إلى الجريدة، ولم يشأ الأستاذ صديق أن يجابهه مباشرة فقال له: أرجو أن تدلني على المرجع الذي اعتمدت عليه في مقال كذا بالبصير، قال: لقد غاب عنى اسمه، ولم أعد أتذكر، فانفعل الأستاذ وقال: في هدوء: لن أنشر لك مقالاً إلا بعد معرفة مرجعه!

وقابلت الأستاذ. فأخبرني بما كان، فقلت له: ولماذا لم تواجهه بخطاب الأستاذ العامودي، قال: لأحب أن أثير عداوةً للزوم لها، قلت: سأواجهه أنا، لأنني أخرجتُ مع العامودي، قال: لك ذلك، وسيعلم سلفاً أني أدركت ماكان، فلا يبلطخ الجريدة بهذه السوءات! ثم قال الأستاذ مبتسماً: أتعرف كيف بدأت صلة هذا الكاتب بجريدة البصير؟ لقد كتب ذات يوم من أيام رمضان المبارك مقالاً عن الصوم، لا يخرج عن معلومات تلميذ بالمدسة الابتدائية، فلم أشأ أن أنشره رعايةً لمكانته القانونية، ثم فوجئت به يذيع في كل مجلس أنني أحارب المقالات الإسلامية وأضيق بنشرها، وجاءتني الفرية فقلت: يا قوم أمامكم البصير، تجدونه

يحتفل في كل موسم ديني بما يوجه إليه من قصائد إسلامية وبحوث دينية، فكيف تصدقون هذا؟ وحادثت الرجل تليفونياً لأبلغه أن المقال لم ينشر لأنه دون ما ينبغي أن يكتبه باحث ممتاز مثله، ومن يومها أخذ يمطرنا بالبحوث القانونية فأنشرها، دون أن أعلم أنها مسروقة!

عبد السميع المرسي:

ورثت عن والدي صداقة رجل فاضل، لم يتعلم في مدرسة، ولم يجلس إلى أستاذ، ولكنه كان نادرةً في حفظه يسمع القصيدة مرة واحدة فيروى بعض أبياتها، كان نادرةً في نظراته الاجتماعية، حيث لاتخذعه الظواهر بل يحكم على كل إنسان بما يدل علي غور بعيد، ونباهة مفرطة، كما كان نادرةً في بؤسه إذ ظل لا يجد قوت يومه إلا بعسر شديد ولا يترك ملبسه إلا بعد أن تتأهبه الريح! ثم جاءني نعيه، وأنا أصطاف بالإسكندرية، فرأيت أن أرفه عن نفسي بكتابة مقال عنه يبرز مواهبه المستترة، ويكشف عن معدنها، وقلت في خاتمتي: إن الرجل قد عاش في قرينه المتواضعة كما تنبت الزهرة الجميلة في أعلى الجبل، ترسل العطر ولا يشمه أحد، ثم تلوى بها الريح عند الذبول فتهدى وحيدةً بائسة لا يحفل بها إنسان، وتقدمت بالمقال للأستاذ صديق لينشر في البصير، فقال بعد الفراغ من قراءته: لم أُسرَّ بنشر مقالٍ كما سأسر بهذه الكلمة الرائعة، أنت متحدث عن رجلٍ مغمور لا يعرفه أحد، وقد ذهب إلى ربه دون احتفاء، فيجب أن يحتفى بالبصير بذكراه، ثم التفت إلى زميله الأستاذ عبد الحكيم الجهني المحرر بالجريدة وقال: أبشر يا عبد الحكيم، لقد وجدنا من سيتحدث عنا بعد الرحيل، لأن الأستاذ رجب سينظر إلينا كما نظر إلي صاحبه عبد السميع، لنطمئن من الآن! ثم نشر المقال في موضع بارز، وجعل عنوانه (شخصيات منسية).

ومن طريف ما لحق بهذا الموضوع، أتى تحدثت في المقال عن مطارحات شعرية وقعت بين عبد السميع والشيخ على عقل العارف بالله الشهرير، وماكاد المقال يظهر حتى جاء الدكتور حسن ظاظا إلى جريدة البصير، يطلب أن يراني، فقد يكون

لدى ورثة عبد السميع بعضُ قصائد الشيخ، وهو يهتم بجمعها، كذلك حدثني الأستاذ صديق، وقال إن لصاحبك المنسى كرامات.

النقد الرقيق :

اختص الأستاذ بتحليل ما يصدر من المؤلفات، ولكنه كان يميل إلى إظهار المحاسن بإفاضة، فإذا تعرض للمآخذ كتبها في إيجاز، وفسح للمنقود طريق الدفاع عنها، وقد تحدثنا في هذا الاتجاه، فقال الأستاذ: إن كل فتاة بأبيها معجبة، وكل من كتَبَ يتوقع الثناء المستطاب فلا بد أن نعرض مانقده على عرضه من المحاسن المشاهدة دون مبالغة! ثم نأتى للمآخذ بما يشير إليها، حيثئذ يلمس المنقود، دلائل الصدق، فلا يسيء الظن، وهذا أقوم السبل إلى التوجيه، وهذا السلوك المهذب قد أثار عليه نائرة الأستاذ حبيب زحلاوى، فعقب يقول: إنه يخفى بعض الحقائق، وذلك لأن الأستاذ «صديق» عرض قصة رمزية للدكتور بشر فارس فخصها بكثير من الثناء، وجعل النقد متجهاً للأدب الرمزي بنوع عام لابقصة الدكتور بشر، وكان الأستاذ حبيب قد نقد قصة بشر من قبل نقداً جارحاً، فانتهز كلمة الأستاذ شيبوب ليعيد الكرة، وليرمى الناقد بتعمد الغفلة عن مساوئ القصة، ولم يرد الأستاذ «صديق»، حيث اكتفى بالقول بأنه قدّم وجهة نظره، وليس من همه أن يفرضها على القراء فليعارضها من يشاء!

هذه شجون مختلفة، جاءت بها الذاكرة، فسردها كما تواردت بدون تنميق وهى فى غايتها الأدبية تلفت الدراسين إلى جهود ناقد أدبى بصير .
